دور الجامعات الليبية في تدريس الثقافة الإسلامية

د. ضو محمد البوني
كلية الآداب – جامعة الفاتح

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، أحمد وأستعينه واستغفره، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمه للعالمين، وعلى آله وصحبه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

وبعد.....

يمر المجتمع المسلم اليوم بفترة يقظة ومواجهة عارمتين، حتمتها الظروف المحيطة، فكل البلاد الإسلامية تعلم علم اليقين مدى قصورها في مجال التقدم المادي، وتطمح كلها إلى تصحيح هذا

القصور الشائن، ولكنها لا تستطيع ذلك إلا بالمرور من بوابة قبول المعرفة الوافدة من الغرب، ذلك أن نظام التربية والتعليم الإسلامي قد تجاهل أهمية التربية العلمية.

ونظام التربية في الغرب قام بمعزل عن الدين، فبدأ بدوره يؤثر على عقول المثقفين ثقافة جديدة في العالم الإسلامي، ولقد زاد استعمال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية من تفاقم هذه المشكلات الناتجة عن تدفق تلك الأفكار التي تختلف عن الأفكار الإسلامية، أو تتنافى معها الأمر الذي ألقى بظلاله على مهمة الدعوة، وأضاف أعباء على الدعاة.

إن مهمة الدعوة الإسلامية تتمثل في إعادة تكوين الشخصية الإنسانية طبقاً للقوانين الإلهية، بعد أن ران على تلك الشخصية ظلام الشرك والجهل والضلال فأفقدها الوعي الصحيح بمركزها في الكون، ورسالتها في الحياة.

وشرائع الأنبياء التي آلت إلينا، واتضحت معالمها بالدين الخاتم الذي جاء به محمد بن عبد الله تقوم على أمرين جليلين، بينتهما الآية الكريمة: **(أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)**[1].

وإقامة الدين تعني دعم قواعده، وتوسعه مجاله ليشمل مناحي الحياة كلها، مع إحصاء لشعب الإيمان كلها، وتنشئة الأجيال الحاضرة واللاحقة عليها.

أما الأمر الآخر وهو النهي عن التفرق فيه، فإن الكيان الحي لا ينقسم على نفسه، بل ينتشر الحس في جميع أجزائه، ما دام أعضاؤه

يسلمون تسليماً يقيناً ببعض الفروض التي اعتادوها منذ نعومة أظفارهم، والتي تصبح إلى حد كبير جزءاً من تفكيرهم، وتنعكس على سلوكهم.

لقد أمد الإسلام – بوصفه ديناً عاماً – المجتمع الإسلامي بهذه الفروض من خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ومن خلال الأنماط التربوية والثقافية والاجتماعية التي تضمنتها النصوص الإلهية الخالدة على مر الأيام والأعوام.

إن كل تعاليم الإسلام تتجه بالإنسان نحو هدف واحد هو تقويمه، والحيلولة بينه وبين الانحراف في العقيدة والسلوك تحقيقاً للغاية التي من أجلها خلق وهي خلافة الله في الأرض.

والذي يراجع تاريخ البشرية قبيل الإسلام وبعده بأعوام قليلة يدهش لهذا الانقلاب الهائل الذي حول تلك الأمة الوثنية الممزقة الضعيفة التي لا وزن ولا شأن لها بين شعوب الأرض إلى أمة تنبض حيوية وتخرج من قمقمها تحمل رايات العدل والمساواة بين شعوب الأرض، فاستطاعت بذلك أن تقود وتسود، وتفتح أمام الناس كافة سبل المعرفة، فتكون رائدة في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية الكريمة.

ومرد ذلك إلى مبادئ الدعوة الخاتمة التي صاغت الإنسانية صياغة جديدة، ووضعت للمسلم نظاماً مثالياً أكمله الله، وأتم به نعمته

على الناس، يكرم بني البشر، ويسخر لهم ما في السماء والأرض، ويرسم لها الطريق المستقيم ليسيروا فيه نحو الهدف المنشود الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة: فألزمهم صون الأنفس، وصون الأموال والأعراض والأنساب، وفصل لهم ما حرم عليهم إلا ما اضطروا إليه غير باغين ولا عادين.

ومقارنة هذا النظام بغيره، تعطينا البراهين الساطعة على أفضليته، فهو ليس بالنظام الذي يكبت حرية الفرد، ويحرمه حرية الرأي، ولا هو بالنظام الذي يطلق العنان لجميع تصرفات الأفراد، فيجعل الربا قاعدة التعامل في الأموال، رغم ما جره من أزمات اقتصادية هائلة، ويتسامح في ارتكاب الفواحش، حتى صار يبذل الأموال الطائلة لمعالجة الأوبئة الناشئة عن هذه التصرفات الخاطئة.

ذلك أن الإسلام دين تربية قبل أن يكون رسالة تشريع، ودين فكر قبل أن يكون رسالة وعظ وإرشاد، فالدعوة في الإسلام تقاس بما تتضمنه من خلق، وبما تقوم عليه من أفكار، وبما تمد الحياة من حضارة وتقدم، وبما يبلغ المؤمنون بها من سمو وعزة وكرامة فهي دعوة تفضل الإنسان على كثير ممن خلق الله تفضيلاً، وتنهض بالمجتمع على أساس متين من عقيدة التوحيد.

ألم ير الناس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتخذ التربية وسيلة لتقوية العقيدة وإرساء قواعد الخلق والفكر وكرامة الإنسان، ونهضة المجتمع؟ لقد ربى أصحابه حتى كونوا أمة حملت رسالة سامية

أخرجت الناس من ظلمات الجهل والتخلف إلى نور العلم والإيمان، وأنشأت حضارة راقية، وصنعت تاريخاً عظيماً.

ولكن المجتمع الإسلامي اليوم ليس على مستوى المجتمع الإسلامي الأول، ولا قريباً منه. وإن كان من حسن الحظ أن الانفصام عن الدين لم ينتشر انتشاراً عظيماً، أو لم يسد الحياة الإسلامية كما ساد في الغرب، فما زالت البلاد الإسلامية ترى في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولو من الناحية النظرية على الأقل – مصادر للهدى، وما زالت التعاليم الدينية موضع احترام عند كثير من الدول الإسلامية يضاف إلى هذا وجود قاعدة شعبية تنادي بإعلان أن الإسلام هو أساس الحياة في البلاد الإسلامية، وهذان الاتجاهان يمثلان الأمل في العودة إلى المنهج الإلهي، إذا تضافرت الجهود، وخلصت النيات

ولا شك أن الإسلام هو المنهج الرباني الحق، الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، وتكامل بمجيئه الدين السماوي، قال تعالى: **(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)**[2]، فهو الذين الذي يقوم على عبادة الله وحده، المهيمن على كل شئ، فكل موجود بأمره، وكل نعمة على المخلوقات هي فضله، فكان لذلك مستحقاً للعبادة لذاته.

ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم، وكان ديناً للبشرية جمعاء على مختلف أجناسها وألوانها وعصورها، أحكم الله شريعته على لسان

نبيه محمد **(صلى الله عليه وسلم)**، فجعلها صالحة لكل زمان ومكان، دستورها كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهدى نبيه محمد **(صلى الله عليه وسلم)** المؤيد بالوحي، فكان في هذا الدستور شفاء القلوب ودواؤها: ففي الجانب الإعتقادي يحمل النور الذي يشع في النفس البشرية، ليوجهها التوجيه النافع في الحياة، ويحملها على التضحية لتحقيق أسمى الأهداف وأنبل الغايات، وفي جانبه التعبدي يمثل منهج الإخلاص الذي تنعكس آثاره في حياة الإنسان: شعوراً بالمسؤولية والاستقامة وسلامة النفس.

وفي الجانب السلوكي يعطي المثل الرائع في حسن التعامل والإنصاف والوفاء بالعهود وتحقيق العدل بين الناس، وما اجتمعت هذه الخصال الحميدة في شريعة، وتمسك بها أتباعها، إلا وتحققت فيهم الريادة، وأصبحوا سادة الدنيا، وكان لهم التمكين في الأرض **(وعد الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً)**[3].

ومن ثم صار للشخصية الإسلامية سمات وخصائص تميزها عن غيرها: فالمسلم ذو أثر إيجابي في الحياتين الخاصة والعامة، وفي علاقاته بالأفراد والجماعات، فلا يعرف السلبية، وإنما يتطلع دائماً إلى القيام بالأعمال الجليلة والإنجازات الضخمة، ولهذا تتميز تلك الشخصية

بالنظرة الجادة والموضوعية، والإرادة القوية، وتترفع عن الدنايا وسفاسف الأمور.

وفضلا عن هذا كله فإن الشخصية الإسلامية ترى أن الوقت هو الحياة، وان كل إنسان مسؤول عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما ضيعه، فلا تنفقه في إلا وجوه البر والخير.

ويشهد التاريخ أن هذه الشخصية – حين حافظت على تلك المقومات– حققت البطولات، وضربت أروع الأمثلة في البطولة والفداء، وأثبتت وجودها في كل ميادين الحياة، وقادت العالم دهوراً من الزمن، ولكنها ما إن تخلت عن تلك الخصائص والمبادئ حتى هان شأنها، وذهبت ريحها، وتداعت عليها الأمم من كل صوب وحوب، وأصبحت تابعة بعد أن كانت متبوعة .. وذلك راجع إلى جهلها بخصائصها وسماتها الذاتية، وانصرافها عن جوهر الدين، واهتمامها بالقشور ذو اللباب، وطال عليها أمد التخلف والجهل والظلم الاجتماعي الأمر الذي شجع أعداء الإسلامي للانقضاض على ما تبقى من رموزه، فكانت الحملة الصليبية الاستعمارية هي القشة التي قصمت ظهر البعير، حيث تفننت في أن تقيم بينها وبين خصائصها وقيمها حجاباً كثيفاً من الإهمال والجهل حتى لا تعود كما كانت عملاقاً لا يهاب شيئاً.

وكان لابد من أن يعمل الاستعمار مع هذا على أن تتجه تلك الشخصية نحو المفاهيم والقيم غير الإسلامية، لتصبغ بصبغة جديدة

قوامها الثقافة والعادات والتقاليد الاستعمارية، لتظل على ولائها للاستعمار وقيمه.

وأصبحت عقيدتنا وأخلاقنا وقيمنا في واد وحياتنا العملية في واد آخر.

نقيضان لا يلتقيان، وحدث ذلك نتيجة الاصطدام الكبير بين قيمنا الموروثة وبين قيم جديدة وافدة علينا من الغرب والشرق. لقد أحدثت هذه القيم الجديدة اضطراباً وحيرة أليمة أصابت المثقفين فينا، ودفعتهم إلى التبعية العمياء والتقليد الجاهل أحياناً، والى اليأس والسلبية أحياناً أخرى، وكل ذلك أنساهم الاهتمام بعامة الناس الذين أصابهم الجهل والكسل والتواكل. إن العلم والجد والإخلاص والنظام والنظافة، وإيراز الشخصية المؤمنة وغيرها من مقومات حضارتنا الإسلامية الأولى قد أهملناها وتركناها، وصرنا نلهث وراء سراب. فإذا أردنا أن نعيد لأمتنا مجدها وعزتها فلابد أن نقيم المجتمع المسلم، ونجعله حقيقة واقعية، وذلك يتطلب تكاثف الجهود للعمل على صلاح هذه الأمة، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إن نقطة البدء في كل إصلاح اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي في المجتمع إنما هي التخطيط وموضوعنا – الذي نحن بصدده – (دور الجامعات في تدريس الثقافة الإسلامية) يحتاج إلى تخطيط دقيق، يقوم به فريق من المتخصصين، ولعل هذا هو السبب الذي جعل تأثير هذه المادة في الوسط الطلابي لم يحقق الثمرة المرجوة منه وذلك – في نظري – يرجع إلى سببين:–

1. أن الوقت المخصص لدراسة هذه المادة غير كاف الأمر الذي ترتب عنه عدم التعمق في دراسة الموضوعات التي يفترض أن تكون ضمن أساسيات هذه المادة. لذا اقترح مضاعفة الزمن حتى يمكن لهذه المادة أن تحتل المكانة اللائقة بها، وحتى يتمكن الدارسون من استيعابها بأسلوب يقوم على الإقناع والاقتناع، بعيداً عن التلقين ولملمة الأمور.

2. تدريس هذه المادة لم يقم على منهجية واضحة تحدد الأهداف التي من أجلها تقرر مثل هذه المواد خاصة على طلبة كليات العلوم التطبيقية. فبيان الفلسفة من وراء تقرير مادة (الثقافة الإسلامية) أمر ضروري حتى لا يشعر الطلاب بأنها فرضت عليهم الأمر الذي قد يؤدي إلى النفور من المادة أو على الأقل لا يستفاد منها الفائدة المثلى خاصة ونحن نعاني كمسلمين من وجود منظمات تربوية تقوم على السطحية والمحاكاة في مجال التحديث، فالنظام التربوي السائد في كثير من البلاد الإسلامية، سرعان ما يؤدي إلى استلاب الشباب المسلم عن تراثه الثقافي الأصيل، بل إن الكثيرين منهم أصبح عندهم إحساس بأن ثقافتهم وحضارتهم تقليدية سابقة لا تقود إلى التفكير العلمي.

وعلى الرغم من الحقيقة التاريخية إلى تقرر أن المسلمين كانوا حملة مشاعل العلوم، وانهم عرفوا بتحملهم مسؤولية إيقاظ التفكير العلمي والنهضة والأوربية، نجد الشباب المسلم اليوم ينقاد إلى اعتقاد أن الإسلام ضد العلم والتنمية.

وبصورة عامة فإن عملية ما يعرف اليوم تحديث المجتمع في العالم الإسلامي أمر تخريبي للثقافة الإسلامية، وأنه أحدث تلفاً في النسيج الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمعات الإسلامية. ولئن أخفق أسلافنا في القرن الماضي تحت ضغط السيطرة الاستعمارية أن يدافعوا عن الثقافة والنظم الإسلامية.

فإنه يمكن أن نلتمس لهم العذر، ولكن لا يوجد أي سبب يبرر اتباع السياسات الغربية الآن، إذ يفترض أن للعالم الإسلامي استقلاليته، ومن ثم يكون المطلوب تقويم جاد للموقف من التحديث من أجل الكشف عن بدائل إسلامية للاتجاهات الحاضرة للتحديث.

أن الإسلام لا يعارض التغير، بل هو على العكس من ذلك يحض المسلمين على العمل الدائب، ويرشد القرآن المؤمنين إلى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولكن التغيير الذي يحض عليه القرآن الكريم يجب أن يصاغ على أنه التغيير من أجل غاية تسعى إلى كمال الإنسان وتفوقه الخلقي والروحي على ضوء المعيار الذي حدده القرآن الكريم، وبيّنته السنة الشريفة المطهرة، وكل اتجاه آخر للتغيير يبتعد بالمسلمين عن هذا المعيار القيمي إنما هو انحراف وتحلل.

والإسلام ليس بحاجة إلى اختبار في هذا المجال، فلقد واجه بكل الثقة في الماضي حضارات متفوقة تفوقاً مادياً وتقنياً، ونجح في اكتسابها لحظيرة الإسلام، والتحدي الحاضر الذي تمثله الحضارة اليوم لا ينبغي أن يكون في جوهره استثناء من ذلك، فالطريقة الوحيدة

لمواجهته هي الإقامة على الإخلاص لمبادئ الإسلام الخالدة التي لا تتبدل، ثم تطبق هذه المبادئ في كل موقف يواجه المسلمين، وكل علم يعرض لهم.

فإذا رجعنا إلى موضوع الثقافة نجد أن مفهومها الاصطلاحي لصيق الصلة جداً بمدلولها اللغوي، فالثّقاف هي الآلة التي تقوم الرماح، ولغة العرب تجعل الثقافة فوق المعرفة المجردة.

قد يكون الحذق والفطنة والذكاء بعض ما يدل عليه الوصف في قولنا: رجل مثقف بيد أن هذا من الناحية النظرية. أما من الناحية النفسية فيجب أن تتغلل المعرفة في الإنسان تغلغلاً يسمو بطبيعته، ويصلح من سريرته.

فإن كان في خلائقه عوج قومه ما نال من ثقافة، وعلى هذا لا ينبغي أن يعد مثقفاً من حفظ جملة من المعلومات، وظل مع كثرة علمه مدخول الأخلاق رديء المسالك. ولعل هذا الملحظ هو الذي جعل العرب يصفون الرمح بأنه مثقف إذا ذهب ميله واستقام عوجه.

وفي حديث عائشة تصف أباها: وأقام أوده بثقافة..... تريد أنه سوى عوج المسلمين [4].

فمدلول الكلمة واشتقاقها في اللغة العربية، يعطي برهاناً على مدلولها العلمي. ويتضح مفهومها الاصطلاحي كلما قرب من معناها الوضعي.

ولذلك، فإذا اعتبرناها وسيلة الاستقامة في تربية النشء المسلم، فإنها حينئذ سوف تشمل المعارف التي ترسخ العقيدة، وتحفز على التعود على أفعال الخير والبر ومساعدة الآخرين.

ولعل هذا هو الهدف العام للثقافة. ولكن لها مهمة تهذيبية خاصة تتنوع أبعادها تبعا لاختلاف المتغيرات الطبيعية في الأمة الإسلامية، شرط أن تنطلق المعارف التهذيبية من ثوابت التربية الإسلامية، المتمثلة في معاني القرآن الكريم والهدى النبوي، على أن تكون ما يعرف بعلوم الآلة، كاللغويات، والتاريخ، والأدب.... بمثابة دوائر ترتكز على الأمور الأولية، وتضفي على هذه الأصول أبعاداً إنسانية.

فالمثقف المسلم يتميز باحكام ضروريات أحكام الشريعة من خلال نصوصها القرآنية والنبوية، ومعرفة حاجيات تكوينه في العبادة والمعاملات الاجتماعية. ويأخذ ما يستطيعه من تحسينات العلوم والآداب بمعناها الشامل والواسع.

وقد يحتاج المثقف المسلم إلى لغة غير العربية، ليوسع محيط ثقافته، وليستوعب الاكتشافات العلمية، التي تتلاحق الآن خارج العالم الإسلامي ولكن عليه أن يحذر الوقوع في شرك التقليد للغرب. فهناك بعض المثقفين المسلمين قد استهوتهم الحضارة الغربية، وسرعان ما نراهم يضعون ثقافتهم موضع الشك، ثم بعد ذلك شيئاً فشيئاً، يجعلون من الثقافة التي اعتنقوها مثلاً يخضعون له قيم ثقافتهم الإسلامية

الأصلية في الوقت الذي تنعدم فيه الصلة بين الثقافتين، محاولين أن يظهروا للعالم الإسلامي أن تقليدهم هذا نوع من الإبداع الفكري.

إن تقليد الغرب والسير وراءه لن يوصل المجتمع المسلم إلى المستوى التقني الذي وصل إليه الغرب، لأن التابع يظل دائماً خلف المتبوع، فالعالم الإسلامي لا يمكنه اللحاق بالعالم المتقدم إلا بالثقة في النفس، والاعتزاز بدين الله **(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)**[5].

فالثورة الصناعية تتطور اليوم في مجالات التقنية: من وسائل اتصال، واستخدام الفضاء، وتطوير التقنيات الإلكترونية..... وبإمكان المسلمين اليوم أن يلتحقوا بقافلة العلوم العصرية إذا ما توافرت عوامل معنية أهمها:-

1. إيجاد تعاون وثيق بين الشعوب الإسلامية لتسخير إمكانيات كل فرد لصالح الأمة كلها، وهذا يعني قبل كل شئ نبذ الخلافات، والصراعات القائمة بين مختلف القوى التي تتألف منها الأمة.

ولست في حاجة إلى التذكير بأهمية تكاثف الجهود، خاصة في هذا العصر الذي أصبح يقوم على التكتلات والتعاون الجماعي.

2. الاعتماد على الله والتوكل عليه، واليقين بأنه ينصر من نصره، وأن السعي في سبيل عزة الأمة وكرامتها من أوامره الملزمة، والأمثلة التاريخية تبرهن على أن كل أمة حينما تحدد هدفها الأسمى، وتعد

الوسائل الملائمة، وتوحد الجهود، فإنها تصل – بإذن الله – إلى مبتغاها، فمن ذا الذي يصدق أن اليابان التي دمرتها الحرب في أوائل هذا القرن وفي أوسطه، تمتلك اليوم مفاتيح التقدم الصناعي وتتحدى أكبر دول العالم.

3. توحيد أصول الفكر الإسلامي، وتوحيد هذا الفكر لا يعني أن يكون جميع المسلمين على مذهب واحد في الفروع، ذلك أن سعة الشريعة وملاءمتها لضرورات مختلفة، قد ينتج عنها أحكام مختلفة، لكن المهم أن يقع الوفاق على أسس التوحيد، والإجماع على أصول العقائد الإسلامية، وأن تتفهم الأمة أوجه الخلاف في القضايا التي قد تثير الجدل بين العلماء والباحثين في المسائل الاجتهادية، والالتزام بأدب الخلاف عند المسلمين.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة الثقافة الإسلامية لأن أولى مهامها القيام بإيجاد وحدة فكرية واجتماعية بين أبناء الأمة الإسلامية جمعاء. بل إننا لو أحسنا بناء هذا الصرح على أسس ثابتة وقواعد متينة، لانتهينا إلى وحدة أشمل وأعم، أعني وحدة المشاعر والغايات.

أما مواد الثقافة التي نسعى إلى جمع المسلمين عليها فيحسن أن تستعرضها فيما يلي:-

1. اللغة العربية، لما لها من ارتباط عضوي بالإسلام، والتاريخ خير شاهد على ذلك، لأنه لولا الإسلام لما تأتي للغة العربية لأن تنتشر في العالم، وتظل أكثر من سبعة قرون اللغة السائدة في كل مناحي الحياة

العملية، والثقافية، والاجتماعية... بل أقول: إنه لولا الإسلام لما تأتي لها أن تبقي حية مزدهرة دون أن يعفو عليها الدهر كما حدث للغات أخرى.

إن دارس التاريخ ينبغي عليه أن يعي دروساً في كيفية انتشار اللغة العربية من العراق إلى الأندلس بعد ظهور الإسلام، ولا يفوته أن يستخلص بسهولة أن الإسلام هو الذي جذب الناس إلى القرآن ولغة القرآن حتى تعربوا عن طواعية وبدافع من أنفسهم، وليس أدل على ذلك من أن الأعاجم هم الذين ساهموا بنصيب أوفر في إرساء قواعد هذه اللغة عن طريق الشرح والتوضيح والتأليف في شتى فروع اللغة. فلولا الإسلام لما وسع العرب إجبار تلك الأمم الأعجمية على التخلي على لغتها، والأخذ بلغة العرب في دورها وأسواقها ومعابدها ومدارسها ودواوينها، بل وأكثر من ذلك في تفكيرها وميولها وعواطفها.

ويكفينا عظة وعبرة محاولة المستعمرين في العصر الحاضر، إذ هجموا على كثير من بقاع الأرض، وغلبوا أناساً من مختلف الأجناس والأديان، إلا أنهم لم ينجحوا في محاولاتهم السافرة للقضاء على اللغات المحلية، وإحلال لغتهم محلها في الحياة العامة، وكل ما حققوه أنهم كونوا بجميع وسائل الترغيب والترهيب طبقة خاصة من

عملائهم وأجرائهم تبنوا ثقافة أجنبية مغايرة لثقافتهم الأصلية، مما جعلهم يعيشون في عزلة عن بيئتهم الوطنية والدينية والخلقية.

ونحن حين نسعى إلى توسيع دائرة اللغة العربية لتعود لها تلك المكانة التي وصلت إليها في ظل الوحدة الإسلامية لا نسعى إلى أن تكون من أهدافنا العظمى تعريب العالم كله. فهذا أولاً مستحيل.

وهو – ثانياً – محاولة لتعطيل آية من آيات الله في الأنفس والآفاق. قال تعالى: **(ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)**[6] فلتبق لكل شعب مسلم لغته الخاصة ما شاء البقاء عليها. وليبق معها هذا الرباط الذي اختاره الوحي الأعلى ترجمانا له وعنواناً، وهو لسان العرب. وجعل العربية لغة عامة للأمة الإسلامية ضرورة حيوية

والعقبة الكأداء في سبيل إحلال العربية محلها في التعليم والثقافة الإسلامية في الطبقة المثقفة ثقافة أجنبية عصرية أعدها المستعمر لتخلفه في الحكم والإدارة، وانتهزت هذه الطبقة الفرصة التي سنحت لها بعد استقلال البلاد الإسلامية غير العربية، ونصبت نفسها وصية على الإسلام، ولم تستنكف هذه الفئة أن تجترئ على الإسلام مع عدم إلمامها بحدف من العربية. ومن أتيحت له فرصة الاطلاع على الثقافة الأجنبية، فإنه يرجع إلى الترجمة الإنجليزية للقرآن، ويبحثون عن التراجم الإنجليزية للأحاديث الشريفة، ويستقون معلوماتهم عن الإسلام

من تلك المصادر، ومعظمها من نتاج المستشرقين الذين ثبت عداؤهم للإسلام دون شك.

وهذه الطبقة هي التي تدعي الاستغناء عن العربية، وتستهزئ بالذين درسوا الإسلام من مصادره العربية الأصلية، وتسعى جاهدة لاستبعاد العربية من المناهج الدراسية.

وحيث أن اللغة العربية تعتبر بمثابة الروح للجسد بالنسبة للدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، فإن على الحكومات في البلاد الإسلامية أن تبادر إلى اتخاذ ما يلزم لجعل العربية اللغة الأولى بالنسبة للمسلمين.

وهذا لا يعني أن تكون اللغة الرسمية في الإدارة، ولا لغة المخاطبات اليومية، وإنما تعني أن تكون العربية هي المتفوقة على اللغة المحلية "القومية" واللغة "الإنجليزية أو غيرها" في ميدان التعليم والثقافة العامة بحيث لا يعتبر مثقفاً ثقافة أصيلة متكاملة من لم يتقن العربية. ويتبع هذا أن تكتب جميع اللغات المحلية بالخط العربي، حتى نعيد للخط العربي مكانته التي كان عليها بعد أن تبين فداحة الخسارة الدينية والثقافية التي نجمت عن استبداله بالخط اللاتيني.

ولتحقيق هذه الغاية فإنه من المفيد أن تتوسع البلاد العربية في إقامة معاهد ومدارس في البلدان العربية نفسها، وتنظيم دراسات خاصة لطلبة المدارس الدينية العربية في البلدان الإسلامية غير العربية، حتى

يتسنى لهم استعمال وتطبيق المادة اللغوية التي تعلموها في المدارس في الحياة الواقعية.

وقد قامت جمعية الدعوة – مشكورة – بإنشاء المعهد التأهيلي، ونتمنى أن تتسع هذه التجربة لتستوعب أكبر عدد من أبناء المسلمين.

2. العقيدة الإسلامية:- أن نشر العقيدة الصحيحة، وتدريسها في المدارس والجامعات، وتدارس أهل الدعوة لها، ووضعها ضمن مناهجهم، يحقق للمجتمع وحدة فكرية، ويجعل الشباب المسلم ينطلق دائماً من المبدأ الموحد، وهو التوحيد.

ومما تجدر ملاحظته أن تتم دراسة هذه المادة وفق منظور جديد فقد كانت محاولات السابقين للبرهنة على وجود الله، واثبات الرسالة، وما يتصل بهما من حقائق غيبية قد وقفت عند جهود علماء الكلام، باستخدام الأقيسة المنطقية، التي بليت لطول مالاكتها الألسن، وأصبح مجرد التحدث بها داعية إلى الملل منها، بل أن لغتها لم تعد مفهومة للشباب المسلم الذي يعيش في هذا العصر، الذي أصبح كل شئ فيه موضع شك، وبذلك سقطت كل القضايا القائمة على المسلمات المنطقية، لأنه لا شئ في العقل الحديث بمسلم منطقياً، إلا وله نقيض منطقي يمكن أن يتحمله العقل.

ومن هذا أصبح من الضروري تغيير المناهج الكلامية، لإشباع رغبات متجددة في اليقين. وإذا قيل: إن قضايا علم الكلام هي قضايا الغيب المطلق، ولا يعقل أن يكون للتجربة دور في معالجتها. تذكرنا

في رد هذا الزعم. ما قاله ذلك الأعرابي الذي يعيش على فطرته، عندما سئل كيف عرفت ربك؟ فأجاب: "البعرة تدل على البعير، واثر السير يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل كله على الله اللطيف الخبير. وكلمات هذا الأعرابي ألصق بالمنهج التجريبي القائم على الملاحظة، وأقرب إلى التأثير في النفس، وأقدر على إقناع العقل من أية صيغة قياسية

ومن هنا فإنه من المفيد أن نوظف العقل الحديث في خدمة العقيدة، فالجدل الحديث لا يتناقش حول الجوهر والعرض، ولا حول القدم والحدوث، وإنما يتناقش حول حتمية المادة، والاحتمالات الرياضية لتأثير الصدفة في نشأة الكون، وامتداده، وحتمية التطور .... فإذا لم تكن مثل هذه القضايا محور النقاش في قاعات الدرس الجامعي، الذي يصقل عقول الشباب، فمعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل في فراغ فكري، وتخرج للمجتمع نماذج يائسة من جدوى العقيدة في بناء المجتمع المسلم الجديد.

ولست أنكر أن هناك محاولات جادة قام بها بعض العلماء الغيورين على دينهم وأخص بالذكر العلامة "وحيد الدين خان" في كتابه "الإسلام يتحدى" ومالك بن نبي في كتابه "الظاهرة القرآنية" فكلا الكتابين صادر عن نفس الإحساس بضرورة وضع منهج جديد للاقتناع الديني، وكلاهما توافرت فيه المنهجية الحديثة.

لقد اتخذت الثقافة الإلحادية لنفسها خطة لئيمة، تقوم على تجنب دعوة المسلم مباشرة إلى الكفر، لأنها تلقي نفوراً في المجتمع المسلم، ويكاد يكون من المحال إحراز تقدم في الاستجابة لهذه الدعوة، لذا لجأت إلى فكرة أخرى، وهي محاولة إغراء المسلم بعدم الالتزام بالتكاليف، وتحطيم قيم الدين الأساسية في نفسه، بدعوى العلمية والتقدم، دون المساس بقضية الألوهية مؤقتاً، وبمرور الزمن، ومع إلف المسلم لهذا التجريد يصبح من السهل تحطيم فكرة الألوهية ذاتها في عقله ووجدانه، وإذا بقيت افتراضاً فلا ضرر منها ولا خطر، لأنها لا تعدو أن تكون فكرة بالية.

فإذا كان أقطاب الفلسفة الإلحادية في العصر الحديث، قد وضعوا لضحاياهم مدخلاً علمياً إلى الكفر، صار لزاماً علينا أن نحاربهم بنفس السلاح وأن نوجه العلم الوجهة الصحيحة ليصير مطية للإيمان، ذلك ان الحقائق العلمية كلها لا تنافي الإيمان أن لم تؤيده وتدل عليه، فللعلم كلمته المسموعة في ميدان الطبيعة والحياة، أما في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق فإن للدين كلمته التي ينبغي أن نخضع لها بخشوع، ولن يكون هناك – على الإطلاق – خلاف بين العلم والدين، لأن كليهما – إذا صح – ينجبس من معين الحقيقة الواحدة.

3. دراسة تاريخ الإسلام السياسي والفكري، فهي مادة جديرة بجمع المسلمين عليها. ومن المؤسف أن تاريخنا السياسي كتب بطريقة أقرب إلى الهدم منها إلى البناء. فالأطماع السياسية، والمنابزات العرقية

تدخلت تدخلا منكراً في تصوير الوقائع ومضاعفة آثارها. وما نشاهده من تمزق الأمة وانقسامها على نفسها يرجع بالأساس إلى هذا التاريخ فالنزاع بين العرب والفرس، وبين العرب والترك، وأحياناً بين بيوتات العرب أنفسهم، ألقى بظلاله على الجوانب المضيئة في تاريخنا، وصار الاشتغال بالعيوب وتتبع السقطات أهم من دعم الفضائل وتسجيل الحسنات.

فمن الواجب على المسلمين اليوم أن يعيدوا قراءة تاريخهم قراءة موضوعية، وأن تشكل لجنة من ذوي الاختصاص تقوم بغربلة التاريخ الإسلامي غربلة قوامها نشدان العدالة، وعلاج الهفوات الفردية، بما يرد للشعوب الإسلامية اعتبارها، ويرأب تصدعها.

فالتاريخ الإسلامي لم يحض في الماضي بما حظيت به السنة من تمحيص الرواة، والتدقيق في المصادر، وفق منهج علمي لم يكتشف الإنسان منهجاً أفضل منه حتى يومنا هذا.

فمن الجور أن يتحمل الترك أو الفرس، أو أية أمة أخرى أوزار حاكم منهم حاد عن الصواب يوماً. فتكتب سيئته على الأخلاف أبد الآبدين.

أما موضوع تاريخ الفكر فهو من الأهمية بمكان ذلك لأن وحده الفكر في المنطلق والنتيجة شئ لابد منه في سبيل الوصول إلى منهج فكري يهدف إلى إبراز الوجه المشرق للإسلام، ونظراً لأهمية المنهج

كان لعلماء الإسلام دور كبير في ترسيخ علم أصول الفقه، فهو بمثابة المنهج الذي يسير عليه مستنبط الأحكام من أدلتها، وهو يقوم على دعامتين أساسيتين: أصول التشريع، وطرق الاستنباط ومناهجه.

ومعظم الانحرافات التي وقعت في تاريخ المسلمين سواء في مجال العقيدة أم الشريعة كانت نتاج الخلل في أحد هذين الجانبين.

وهذا لا يعني أن لا يكون هناك اختلاف في الأمور الاجتهادية والمسائل الفرعية بل هو دليل على حياة الأمة، وقد تمثل ذلك في مرحلة النضج الإسلامي بين مختلف مدارس الفكر إبان النهضة.

إن النزاع بين تلك المدارس كان نزاعاً بين وجهات نظر مختلفة يتصل كل منها اتصالاً ما بالحقيقة، فهو نزاع ذو طبيعة مختلفة عن طبيعة النزاعات القائمة بين المدارس الأخرى، لأن هناك غاية واحدة يسعى الجميع إليها صحيح أن الأشاعرة عارضوا المعتزلة، وأن المتكلمين بصفة عامة لم يكونوا على وفاق مع الفلاسفة المشائين، وأن السهروردي مؤسس المدرسة الاشراقية انتقد المنطق المشائي، وما وراء الطبيعة.... الخ. ولكن لو كانت هذه الخلافات من أجل الخلاف لما بقى التراث الإسلامي على قيد الوجود يحمل سمات الإبداع والتألق.

ولهذا فإن وجود مدارس إسلامية فكرية لا مدرسة واحدة ليست علامة على الفوضى ولا على الضعف، بقدر ما هي نتيجة لثراء الفكر

الإسلامي الذي كان قادرا على سد حاجات الأنماط العقلية المختلفة لأفراد من البشر مختلفي الخلفيات والقدرات العقلية.

إن دراسة الفكر الإسلامي ينبغي أن يدرس كاملاً على امتداد الزمن المناسب، فليس هناك شئ أكثر إعاقة للبعث الأصيل للفكر الإسلامي من الظن الخاطئ: أن الفكر الإسلامي انحدر في نهاية العصر العباسي، إن هذا التفسير للتاريخ الإسلامي كان من عمل المستشرقين الذين لم يستطيعوا أن يتقبلوا الحضارة الإسلامية.

وأيا ما كان الأمر ففي خلال عصور التاريخ الإسلامي حينما أخرج المسلمون علماء ومفكرين ذوي شهرة عالمية مثل الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد والبيروني وغيرهم كثير كان الجدل يتم بين وجهات النظر المختلفة دون أن يلحق هذا الجدل ضرراً بالإسلام بطريقة من الطرق، ذلك أن كل هذا الجدل كان يتم داخل إطار وجهة نظر الذات الإسلامي نحو الكون.

وهكذا ينبغي أن يمكن الطالب من معرفة شئ عن تلك الخلفية العقلية الغنية، لا أن يواجه بالذات العقلي الإسلامي على أنه بنية من عنصر واحد لا تسمح إلا بمستوى واحد من التفسير، إذ أن مثل هذه النظرة لا تؤدي إلا إلى قتل العقل، وتخلق سلبية من شأنها أن تجعل تقبل الأفكار الغربية عن الإسلام أمراً ميسوراً.

4. دراسة مصادر التشريع الإسلامي: الكتاب – السنة – الإجماع – والاجتهاد... وهو أمر جدير بالاهتمام، ذلك أن أغلب المبتلين بالغلو في العصر الحديث يفتقدون العلم الكامل بالقواعد والأحكام الشرعية، فضعف البصيرة بحقيقة الدين، وقلة البضاعة في فقهه، والتعمق في فهم أسراره، والوصول إلى فهم مقاصده من الأسباب الرئيسية لهذا الغلو.

إن التعمق في دراسة هذه المصادر وفهمها هو الأساس الذي يسعى إليه الغيورون على هذه الأمة ووحدتها، والغلو والتطرف لا يأتي من الجهل المطلق بالدين، وإنما يرجع إلى من وضع نفسه في زمرة العالمين، وهو يجهل الكثير والكثير، فهو يعرف نتفا من العلم من هنا وهناك غير متماسكة ولا مترابطة. ويتمسك بظواهر النصوص دون التغلغل إلى فهم فحواها، وإهمال الالتفات إلى المقاصد والمصالح الشرعية.

ورحم الله الإمام الشاطبي، فقد نبه على هذه الحقيقة في كتابه "الاعتصام"[7] فقد جعل أول أسباب الابتداع والاختلاف المذموم المؤدي إلى تفرق الأمة شيعاً، وجعل بأسها بينها شديداً: أن يعتقد الإنسان في نفسه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين، وهو لم يبلغ تلك الدرجة، فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأيا، وخلافه خلافاً، ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من الفروع – فروع الدين – وتارة يكون في كلي وأصل في أصول الدين – الإعتقادية أو العلمية – فتراه آخذا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، حتى يصير منها ما ظهر له بادي

رأيه من غير إحاطة بمعانيها، ولا رسوخ في فهم مقاصدها، وهذا هو المبتدع، وعليه نبه الحديث الصحيح، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[8].

وقد أدى هذا الغبش في فهم الإسلام، وعدم وضوح الرؤية لأصول شريعته، ومقاصد رسالته، إلى التباس كثير من المفاهيم الإسلامية، واضطرابها في أذهان الشباب أو فهمها على غير وجهها الصحيح.

وبعد فهذه نبذة مختصرة عن دور الجامعات الليبية في تدريسي الثقافة الإسلامية حاولت أن ألقي فيه الضوء على هذا الموضوع، ولا أزعم أن أحطت بجوانب الموضوع كاملة في هذه العجالة ذلك أن وضع منهج لهذه المادة يتطلب تكاثف جهود جمع من المختصين لوضع مفردات لهذه المادة تحقق الهدف المنشود من تدريسها.

إن تحقيق الأهداف العامة، وما سيتفرع عنها من أهداف نوعية خاصة بكل فرع من فروع هذه المادة، يقتضي أن ينهض لتدرسي الثقافة الإسلامية مدرسون أكفاء، ذوو نفوس مؤمنة، وقلوب صادقة، ونيات حسنة، يقدرون المادة حق قدرها، ويشعرون بخطرها ووزنها،

ويبذلون كل وسعهم لخدمتها والإخلاص لها، ويتمثلون جوهر الإسلام، ويترسمون خطاه. وبذلك نستطيع أن نخرج جيلاً مسلماً يحب دينه وشريعته، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويجد القدرة من ذات نفسه على تغيير واقعه إلى واقع إسلامي أصيل يطبق شريعة الله ومناهجه.

(وقل أعلموا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون)[9].

الهوامش

1. الآية (13) من سورة الشورى.
2. الآية (4) من سورة المائدة.
3. الآية (55) من سورة النور.
4. لسان العرب لأبن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) مادة تقف، 20/9. دار صادر، بيروت.
5. الآية (39) من سورة آل عمران.
6. الآية (21) من سورة الروم.
7. الاعتصام، للشاطبئ (إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي) 2-173. دار الع
8. مختصر صحيح البخاري، للزبيدي (رين الدين أحمد بن عبد اللطيف)، 36/1 . ط،1. دار الكتب العلمية. بيروت.
9. الآية (106) من سورة التوبة.